

تتمت الخطبة الاولى

﴿ من خطبنا الاسلامية في الديار السورية ﴾

تابع لما نشر في (س ٦٤١ ج ٩ م ١١)

الاسلام هو الذي هدى المسلمين الى العلم ، وكانت عنايتهم بالعلوم تنمو بنمو سلطانهم وقوة شوكتهم ، ثم دالت دولة العلم ، ودولة السيادة والحكم ، وضعف الدين مع ضعف العلوم العقلية ، وقام الاستبداد يحارب العلم ويضطهده ، فان الحاكم المستبد يرى من مصلحته ان تكون الامة جاهلة ذليلة ، اذ الاستبداد في الامة العالة بحقها أمر عبر غير يسير . قال حكيمنا السيد جمال الدين : العاقل لا يظلم ولا سباً إذا كان أمة . فهذا سبب ما كنتم تقاسون من محاربة الحكومة التي سقطت منذ عهد قريب للعلم ، واضطهادها للمتهمين به وهو عندها أشد الجرائم !!

أتى على المسلمين حين من الدهر وهم لا يجارون أحدا من الامم في العلوم والفنون ، وقد ذاقوا مرارة ذلك ورأوا سوء عاقبه في أنفسهم ودولتهم ، فصاروا يفتنون من كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ، كما قال الله تعالى في المنافقين : تنقص بلادهم من اطرافها وتسقط في أيدي الاجانب ولاية بعد ولاية بل مملكة بعد مملكة وهم لا يهتدون الى سبب ذلك ولا الى طريق تلافيه بل يعتمدون ويتكلمون على ما لا يتكلم عليه من كرامات الاولياء ومدد الاموات ؛ ولم يجعل الله ذلك سبياً للنصر بل أمر باعداد ما يستطاع من القوة حتى في زمن النبي المؤيد بالآيات الإلهية ،

اذ كر لكم من الشواهد على ذلك ما يؤثر عن أهل بخارى : فانهم أندروا هجمة ووسيا عليهم فلم يهدوا لها ما يستطيعون من قوة ، بل هزئوا بذلك وسخروا ، وقالوا ان بلادنا في حامية شاه قشبد ، (هو الولي الذي تعزى اليه الطريقة القشبنديّة) فلما

زحف عليهم جيش الروس لم يملكوها من نجدة هذا الولي لهم شيئا ، بل انقلبوا على
 أعقابهم خاسرين ، وخسروا استقلالهم وما كانوا معتبرين
 فيا أيها الناس تأملوا وتدبروا : إذا تركت الأمة أن تعدّ لأعدائها ما تستطيع
 من قوة كما أمر الله تعالى وكما تقتضي طبيعة الاجتماع ، وانكملت في حياتها السياسية
 والاجتماعية على الاموات ألا تكون جديرة بالموت دون الحياة ؟ بلى وهذه هي
 حالنا في هذه القرون الاخيرة ، ولكن الله تعالى وعد بأن يظهر هذا الدين ، وان
 لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، ولذلك سخر لنا من
 المجددين من يعلمنا كيف نحفظ شرف الاسلام ، ونكون أعزاء بين الانام :
 ظهر بين المسلمين أقوام تعلموا العلوم الاوردية وعرفوا أحوال العالم فرأوا ان
 جميع الامم تقوى والمسلمين يضعفون ، ودول النصرانية والوثنية تترقى وتمزج ودول
 الاسلام تتدلى وتذل ، وبحوثا في سبب ذلك فرأوا ان المسلمين مؤلفون من كل
 جنس ، ومتبوئون لكل أرض ، فلا يمكن ان يكون سبب ضعفهم في كل قطر
 عدم استعداد جنسهم ، ولا شيء يرجع إلى طبيعة أرضهم ، ولم يروا سببا مشتركا
 بينهم لا يشاركون فيه غيرهم ، الا تقاليد دينهم ، فقالوا — كما قال بعض أساتذتهم من
 الأفرنج — ان دين المسلمين هو سبب انحطاطهم ولا مطمع لهم في الارتقاء الا بتركه
 والاخذ بما عليه أوروبا ، وعلى هذا الرأي الفاسد كثير من نابتة الترك والهنود
 والمصريين والتونسيين

فهذا صنف واقف على طرف مقابل للطرف الذي عليه السواد الاعظم الذي
 يمت العلوم الطبيعية والرياضية والاجتماعية التي عليها مدار العمران ، والصنفان
 يتجادبان سائر المسلمين ، ذاك يدعوهم الى دنيا بغير دين ، وذاك يمسكهم ليقوا على
 ما هم عليه وما هم يباؤين

بين هذين قامت طائفة معتدلة وقفت موقف الوسط بين الفريقين فالتفتت
 الى هؤلاء الذين يريدون ان يبقى المسلمون على ما هم عليه حرصا على دينهم وقالت
 لهم ان نيتكم صالحة ولكنكم تنكبتم الطريق لتعليم الدين وحفظه حتى صار بين أمتكم
 وبين هذه الكتب الكلامية والفقيهية مراحل كثيرة ، فلا هم يطلبونها ولا أتم

(المنار ج ١١ م ١٠) السيد جمال الدين . الدعوة الى الاصلاح . الحاكم المستبد ٧٣٩

قادرون على حملهم على تعلمها والاخذ بما فيها ، فيجب أن تبحثوا معنا عن طريق آخر لتعليم الدين بسهولة تليق بفطرة الناس في أفرادهم وجمعاتهم ، كما أخطأتم في ظنكم ان العلوم التي تبنى عليها الاعمال تنافي الدين فنزتم المسلمين عما به قوام أمتهم ودولتهم

وانتمت الى أولئك الذين يريدون الدنيا بترك الدين فقالت لهم ان قصدكم الى تقوية الامة والدولة حسن ولكنكم تبنون من جهة وتهدمون من جهة فيقل نفعكم فيما تبنون لعدم الثقة بكم ، ويعظم ضرركم بما تهدمون من أساس التقوى والفضيلة ، مع التقاليد والبدع القبيحة

هذه الطائفة هي التي تدعو الى حقيقة الاسلام الذي يحمم لاهله بين مصالح الدنيا والآخرة وهطالب الروح والجسد . وأول من دعا الى ذلك في بلادنا العربية السيد جمال الدين الافغاني رحمه الله تعالى . طرق سمع كثير منكم اسم هذا الرجل الذي هز الآفاق هذا ، ولكن يوجد فيكم من لا يعرف شيئاً من أنبائه الصحيحة لكثرة خوض أهل الأهواء فيها ، وقد كان مخاطبكم ممن استقرأ أخباره ، وتبع آثاره ، وجمع كثيراً مما كتبه ، وقد علمت من ذلك انه دعا الى حقيقة الاسلام وإحياء القرآن في قلوب الناس ، ودعوتهم به الى ما يحبيهم ، ويجعلهم أمة عزيزة ، ذات دولة أو دول قوية ، ولكنه قد انفق أكثر أيام عمره في السياسة ، لما رأى ان الملوك يقاومون هذه الدعوة ، لأن البلاد التي تحكم بالاستبداد ، لا مقام فيها للاصلاح والاستقلال بالله عليكم كيف يرضى الحاكم المستبد بالدعوة الى هداية القرآن الذي يجعل

أمر المسلمين شوري بينهم ، وإنما استبداده عبارة عن جعل أمرهم بيده وحده ، وجعلهم عبيدا خاضعين له ؟ كيف يرضى بأن يكون شأنه في سياستهم كأن النبي صلى الله عليه وسلم اذ كان لا يبرم أمرا من الامور العامة الا بعد الشورى حتى انه كان يعمل برأي الجمهور وان خالف رأيه ورأي بعض كبراء أصحابه كما فعل يوم أحد؟! (وذ كرنا ملخص الخبر فيها في الخطبة) ألا ان أولئك المستبدين يحاولون ان تكون رتبهم فوق رتبة النبي عليه الصلاة والسلام وهم لا يصلحون ان يكونوا خدماً له ، بل يحاولون ان يكونوا أمة تعبد ، يستخفون الامة ويستبدونها بالفعل ، وان وجدوا مجال القول

ذاتة صرحوا بما يودعه الاستبداد في نفوسهم كما فصل الذي قال «أنا ربكم الأعلى»
لذلك أقول لكم عن خبرة و بصيرة ان الذي دعا السيد جمال الدين الى
الاشتغال بالسياسة هو اعتقاده ان الدعوة لا تكون الا حيث تكون الحرية وحكومة
الشورى، ولهذا قام في مصر بتأسيس حزب له نفخ فيه روح حب الحكم الذاتي أو
النيابي، وكان من أعضاء حزبه توفيق باشا ولي العهد للإمارة المصرية يومئذ، وقد
عاهده على ان يجعل لمصر — اذ يصير الامر اليه — مجلسا نيابيا ويجعل الحكومة
بذلك من النوع الاستبدادي المطلق الى النوع الشورى المقيد، ولكنه لم يك
يستمر على كرمي الامر حتى نفى السيد جمال الدين من مصر جبا في الاستبداد،
وتندداً بالاستعباد. ولكن السيد لم يمل ولم يأس، بل صبر ينتهز الفرص، فجدته الايام
الى بلاد الفرس فاستأنف فيها العمل لا إنشاء حكومة الشورى ففاه الشاه من البلاد،
ولقي من البلاء في ذلك ما لم يلقه الا قليل من العباد، ثم قذفت به المقادير الى
الاستانة فأحسن السلطان اليه، حتى طمع فيه، ولكنه ما عتم ان يثس منه، حتى مات
هناك غير راض ولا مرضي عنه، هكذا قضى حياته في التطوف في البلاد ولم يتخذ
له زوجة ولا جنح الى شيء من حظوظ الدنيا

كان للسيد مريدون كثيرون يردون ينبوع معارفه، ولكن لم يصدر أحد منهم
ريان من مشربه، ويثبت على مذهبه، الا الشيخ محمد عبده، فقد كان هذا الامام
الجليل تربي تربية دينية صحيحة الا ما كان من غلوه في العبادة، فقد مكث زمانا طويلا
لا يكلم أحدا، وزمانا أطول من ذلك الزمن لا ينظر الا الى الارض ولا يهتم بغير
إصلاح نفسه، الا ما كان من درس يقرؤه لآخوانه المجاورين في الازهر، ثم رجع
الى الاعتدال ولكن لم يفارقه الخشوع ورقة القلب، ولقد دخلت عليه مرة يته فرأيت
يطالع في السيرة النبوية ودموعه تجري على لحته، خشوعا واعتبارا بما لقيه (ص) من
الاذى في سبيل ربه، وكان في كل سنة أو أكثر يعتر به تنبه عصبي من إطالة الفكر
في سوء حال المسلمين حتى هم في ليلة من ليالي رمضان أن يطيع هذا الوجدان فينزل
الى جوار الازبكية حيث مجامع اللهب وينادي: أيها المسلمون ماذا رأيتم في دينكم من
العيب حتى تركتموه؟ اخبروني لملي أين لكم خطأكم. وأرسل الي مرة يخبرني بأن

مرضا ألمّ به فنغه النزول من عين شمس الى القاهرة ، فجتته فاذا هو في حجرة النوم
واذا بين يديه ثلاثة كتب مفتوحة ينظر فيها ، قلت له ماهذه الكتب وما هذا المرض ؟
فقال هذه كتب من أصول الفقه أشغل نفسي بمباحثها وعباراتها المقعدة عن القرآن
فقد اطلت الفكر فيه وفي أحوال المسلمين فحصل لي التنبه العصبي الذي تعرف حتى
أثر في ظاهر جلدي فاذا أنا وضعت أصبعي على جبتي أتألم

اشتغل الاستاذ الامام بالسياسة زمنا مع السيد ثم وجد في أواخر عمره حرية في
مصر فترك السياسة واشتغل بالاصلاح الديني والاجتماعي ، واشتهر أمره بذلك حتى
عرفه الاقارب والاجانب . أليس من العجب ان يوجد في كتاب فرنسا من يشهد
بأن طريقة الاستاذ الامام هي الطريقة المثلى لإصلاح حال المسلمين ، ويوجد في
المسلمين انفسهم من يقول بضرر تعاليمه عن جهل وغباوة ، أو تقليد للمرجفين عن
بني وحسد ؟

نشرت جريدة الاهرام منذ شهرين مقالة مترجمة عن جريدة الطان الفرنسية
الشهيرة جاء فيها : ان المسلمين في تونس ثلاث طبقات (الاولى الجامدة) وهي التي
تحرص على بقاء المسلمين على ما هم عليه وتنفر من العلوم العصرية والمدنية الغربية
وأهلها هم الاكثرون (الثانية المارقة) وهي التي تنكر الدين ولا ترى ان تقف عند
حدوده في شيء ، وأهلها هم الاقلون وهم يخفون مذهبهم هذا الضعيف ولا يرجي منهم
خير لأمتهم (الثالثة المعتدلة) وهي التي تعمل لترقية المسلمين في العلوم والمدنية مع
المحافظة على دين الاسلام وهي التي يرجي منها الخير للبلاد التونسية وأهلها يتبعون
التعاليم التي كان يلقيها في مصر الشيخ محمد عبده والتي تنشرها بينهم مجلة المنار . وقد
كتب اكثر من واحد من الافرنج مثل هذا عن مسلمي مصر وهو ما كتبه لورد
كرومر في تقاريره وتاريخه لمصر

فهذه طريقتنا أيها الاخوان في الاصلاح . نريد ان نجتمع لأمتنا بين مصالح
الدنيا والآخرة ، وقد عرف هذا كتاب الافرنج واعترفوا بفائدته فلا ينبغي للمسلمين
انفسهم ان يجهلوه !

نحن في حاجة عظيمة إلى العلوم والفنون والصناعات العصرية التي تقوى بها

أمتنا وتمزجها دولتنا . ولا يكون الخير في ذلك تاما لنا إلا إذا أقمنا معه أصول ديننا وهي القرآن الحكيم والسنة السنية التي جرى عليها سلفنا الصالح ، ولا تنافي بين الأمرين ، فنحن إذا لم نجمع بين مصالح الدنيا وهداية الدين لا تقوم لنا قائمة . فهذه الطريقة الإصلاحية التي دعانا إليها حكما الاسلام السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده هي التي يدعو إليها المنار ويناضل عنها ، وهو مستعد بمونة الله تعالى للتوفيق بين العلوم الحقيقية وأصول المدنية الصحيحة وبين الكتاب والسنة ، ومن اشبهه عليه شيء في ذلك فليكتب إليه به يفصله له تفصيلاً

قد انتشرت دعوتنا هذه في جميع الاقطار حتى ان جماعة من علماء الترك أنشأوا مجلة إسلامية في الاستانة سموها « صراط مستقيم » فكتبوا إليّ يطلبون مجلدات المنار كلها ليستعينوا بها على خدمتهم هذه . فهم على علم بطريقتنا في الإصلاح على كون المنار كان ممنوعا عنهم وقلما يصل الى الاستانة جزء منه ، فدعوا جميع علماء المسلمين هنا وفي كل مكان الى هذه الطريقة بل ندعو إليها كل مسلم « وتعاونوا على البر والتقوى » وينبغي لسكل مسلم أن يكون له حظ من اصلاح حال أمته في دينها ودنياها ، فمنهم من يدعو ومنهم من يستجيب للداعي ومنهم من يساعده بحاله ، ومنهم من يساعده بحاله ، والسلام على من اتبع الهدى ، ورجح العقل على الهوى ، اهـ ما كتبه ذلك الاديب من الخطبة مع تصحيح وتوضيح وزيادة فاتته

(استدواك) بعد النزول عن المنبر تذكرت ما كنت عازما عليه من التنويه بصديقنا عبد الرحمن افندي الكواكبي فذكرت فضله بمساعدة الاصلاح الديني والاجتماعي بكتابه (سجل جمعية أم القري) والاصلاح السياسي بكتابه (طبائع الاستبداد) رحمه الله تعالى وأحسن جزاه